

أبعاد الرمز الصوفي في شعر الأمير عبد القادر الجزائري

د. عبد الرزاق بن السبع

جامعة باتنة

ملخص:

ارتبط التصوف بحياة الأمير عبد القادر الجزائري ارتباطا وثيقا، عبر مختلف مراحل حياته وخاصة حين فرغ من الجهاد واستقر به المقام بالشرق، وعليه فإن هذا البحث يسعى إلى الكشف عن خبايا هذا الجانب الذي يمثل أهمية كبرى في حياته. فقد مارس الأمير التصوف الحقيقي قولاً وفعلاً ودافع بكل ما أوتي من قوة عن التراث والتراب، فسلك منهج الأقدمين في هذا المجال، وكان له نتاج في التصوف شعرا ونثرا يستحق اهتماما خاصا بما يمثله من أهمية في حلقات مسلسل حياة الأمير عبد القادر الثرية.

Abstract:

Suffism was linked with the life of El Emir Abdelkader in a very close manner, especially in the last years of his life where he settled eventually in the orient. Therefore; this study aims at discovering and casting light upon this hidden side which represents great importance in his life when the Emir exercised the real suffism in word and action in theory and practice, and fought with those two tools for the heritage and the soil. He, thus, pursued the method of the early practioners in this field, which really deserves special attention for the importance it represents in the episodes of the series of the Emir Abdelkader's life.

مقدمة:

إن الاقتراب من مجال الشخصيات التاريخية والأدبية التي اتسمت بالتميز في أكثر من جانب من جوانب الإبداع الإنساني، اقتراب يتطلب الكثير من أخذ الحيطة والحذر من قبل أي باحث ينشد الموضوعية في رسم ملامح هذا التميز ومعرفة المكونات التي أهلت هذه الشخصية أو تلك لتكتسب هذه المنزلة.

والحقيقة أننا أمام شخصية تعتر بانتمائها العربي والإسلامي، إنه الأمير عبد القادر الجزائري الذي نشأ في بيت علم وجاه وتصوف، ولم تكن نشأته هذه تؤهله للإمارة والحكم والجهاد وهو الثالث الذي يتبادر إلى الذهن كلما ذكر عبد القادر بقدر ما كان يتمنى أن يكون مرابطاً كأبيه، ومن هنا فإن هذه الجوانب المتعلقة بصوفيته وأدبياته لم تأخذ حظها من الدراسة والبحث على الرغم من كون الأمير كان يختصر في كيانه أمة بكاملها، ويوجز في حياته عصراً بكامله، فهو أشبه بمحيط يكل أمامه البصر. فهو سليل نسب رفيع، وفارس مقدم، ومجاهد مظفر، ورجل دولة حصيف، وفقه ملم، وصوفي متبحر، استطاع أن يجد لنفسه مكاناً بين الأدباء ورجالات عصره وربما بعد عصره، ومن هنا كانت الكتابة عن الأمير فرض عين وواجب تمليه العلمية والوطنية في فترة تسعى فيها الجزائر لإعادة كتابة تاريخها ربطاً بحاضرها الواعد بماضيها الماجد.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في سعيها للكشف عن جانب هام وثير من حياة عبد القادر لم يأخذ حظه من الدرس والتقديم لقراء العربية وهو تصوفه، فكل ما يعرف عن عبد القادر هو جهاده وإمارته أما الجوانب الأخرى المتعلقة بشخصيته الأدبية (شعرا

ونثرا) وتجربته الصوفية فإنهما لم تنالا إلا حظ المضميم المظلوم على الرغم مما تركه عبد القادر في هذا الجانب من إرث شعري ونثري متنوع يستحق الالتفات إليه ودراسته.

منهج الدراسة:

اقتضت طبيعة الدراسة توظيف مجموعة من المناهج التي تجمع بين الوصف والاستقرار والاستنتاج وهو الأسلوب الأقرب لطبيعة المادة ورصد الظواهر وعرض النماذج على أساس من البحث والتتقيب.

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز جانب هام من جوانب حياة الأمير في شقها الصوفي وكيف كان يمارس شاعرنا هذه التجربة ورؤيته لها من خلال إيمانه بأن التصوف علم وعمل حيث كان يعيشه من خلال تجاربه ويرسمه في شعره ونثره.

نشأ الأمير عبد القادر في أسرة دينية محافظة غرست في نفسه حب العبادة والتقوى والزهد في الدنيا، ولذلك فلا عجب أن نراه ينحى منحى صوفيا غي مختلف مراحل حياته، فيتخذ أقطاب الصوفية أساتذة ومشايخ له يمدحهم ويعظمهم محبة لهم وإرضاء لهوى في نفسه، كما يعرض لكثير من القضايا الصوفية كالخمرة الإلهية والغزل الصوفي ووحدة الوجود وغيرها من العلامات البارزة في التصوف .

وسنعمد من خلال هذا البحث إلى استعراض تجربة التصوف عند الأمير ونظريته وفلسفته من خلال بعض الشواهد التي طرحها في شعره، والتي حاول من خلالها أن يجاري أهل الصنعة المتصوفة من القدامى وحتى معاصريه. وعلى الرغم من أن أشعاره في التصوف - والتي حاولنا الإستشهاد بها - لم تكن عنوانا لجودة الشعر

في ميزان النقد الدقيق، غير أن شعره الصوفي جاء " تلقائي النزعة صادق الدلالة في ما عسى أن يحققه من اقتدار على كشف الحجاب وإثارة النقد والإعجاب"¹

فقد نظم الأمير في موضوع الخمرة الإلهية كما تطرق أيضا لموضوع الغزل أو الحب الإلهي سالكا سبل الأولين من القوم الذين تناولوا هذا الغزل والحنين والزهد والبقاء والفاء غير أن شعرهم "لم يأخذ من الشعر التقليدي سوى القوالب الموسيقية بينما تميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزي الذي يوحي بالفكرة ولا يصرح بها"² وهو الأساس الذي يرتكز عليه الأدب الصوفي في كل فنونه. فالصوفية" يعبرون عن المعنى بألفاظ تدل في ظاهرها على شيء قريب يدركه القارئ العادي، وتحمل في باطنها معنى آخر بعيدا لا يصل إليه الدارس المتعمق أو الإنسان المتخصص بفهم مواطن النصوص والصوفية الحق"³.

ولذلك فكثيرا ما يختلط الأمر على القارئ إلى حد أنه " إذا لم يقف بطريقة ما على غرض الشاعر، فانه لا يستطيع التمييز بين قصيدتين أحدهما يتغنى صاحبها بالحب الإنساني، والأخرى بالحب الإلهي"⁴ وعلى هذا فالصوفي ليس فقيها يكتب الشعر، بل انه فنان يمتلك زمام الحس الأدبي فيعبر عن أشواقه وما يختلج في نفسه في صور فنية راقية من القول.

¹ - محمد السيد الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، وكتبة الملك فيصل الإسلامية، مصر 1984 ص 158-159

² - علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن العربي، دار المعارف القاهرة د.ت.ط ص. 478.

³ - بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوك والعثماني، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط3 1980 ص 258

⁴ - صابر عبد الدايم، الأدب الصوفي اتجاهاته وخصائصه، دار المعارف ط2 1984 ص 180

والمتمصفح للشعر الصوفي لذي تناول الغزل الإلهي " يشعر انه أمام عاطفة حب عنيفة، وأمام إنسان أذابه الوجد وأضناه الحنين ويتمه الجوى وحرك فؤاده الشوق إلى الحبيب..قوام هذا الحب إخلاص من العاشق، وصدق في عاطفته، وإيمان بحبه، وعزم على البقاء معه وفيه، وذوبان من اجله وتلذذ بالعذاب الذي يرضيه، والحرقة التي تكويه، والدموع التي ترويه والسهام التي ترديه، حب يتمرد على كل غزل أو نصح نصيح.¹

والشعراء الصوفية في هذا الغزل "يرمون إلى معان متدفقة بدوافع الحب والغرام الإلهي، إذ أن الأوصاف الحسية لا تساعد ولا تتاسب الموصوف ولا حال الواصف، فالواصف أسكره الوجد وغيبه الغرام وقتله الحب، فيصف الخمر ويقصد الخمر الإلهي، ويتيم بلبنى وسعدي ويقصد الذات العلية"².

ولن نذهب بعيدا فهاهو الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي يعطينا القاعدة العامة لهذا الغموض والرمز حين يقول " وجعلت في ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفس هذه العبارات، فتتوافر الدواعي على الإصغاء إليها وهو لسان كل أديب ظريف، وقد نبهت على المقصد في ذلك بأبيات وهي"³.

كل ما اذكـره من كـلـل أو ربوع أو مقام كل ما
وكذا إن قلت هي أو قلت يا وإلا أن جاء فيه أو ما
وكذا إن قلت هي أو قلت هو أو هموا أو هن جميعا أوهما

¹ - بكري شيخ أمين، المرجع السابق ص 256-257

² - علي الخطيب، المرجع السابق ص 90

³ - نفسه ص 48

إلى أن يقول:

كل ما أذكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهما

فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلمها

وعلى هذا الدرب سار الأمير الصوفي فنراه في قصيدته التي بين أيدينا وكأنه يتغزل بمحبوب مشخص أمامه، يبثه أشواقه ويصف له حاله وما يقاسيه من الم البعاد والهجر، مع الملاحظة أن قصيدة عبد القادر

تعد نسخة لقصيدة السهر وردى¹ التي يقول في مطلعها:²

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

وقلوب أهل وداكم تشناقكم وإلى لذيذ لقاءكم ترتاح

فحرف الروي هو نفسه في كلتا القصيدتين والمعاني متطابقة حتى لا يظن القارئ أن القصيدتين من نظم شاعر واحد³.

يستهل عبد القادر قصيدته بالتعبير عن فرحته العارمة ولهفته الكبرى برؤية حبيبه الغالي، فقد تحقق له الوصال بعد عذاب وانتظار فحق له أن يحتفل بهذا اليوم الموعود المنشود، ففيه وصل بروحه وسعادته وهنائه فاكتحلت عيناه بطلعة الحبيب ذو

¹ - هو ابو الفتوح شهاب الدين يحيى ابن حبش الصهروردي الشافعي 549 - 578 هـ / 1154 - 1191م ولد بصهرورد وتوفي مشنوقا في سجنه بقلعة حلب. حكيم صوفي فقيه اصولي أديب شاعر من تصانيفه هياكل النور، حكمة الإشراق، والتتقيحات في أصول الفقه

² - ابن خليكان، وفيات الأعيان، ت ح إحسان عباس ج2 دار الثقافة بيروت دط 1968

³ - فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر دط 1985 ص. 233.

الوجه الحسن الصبوح، فدبت في نفسه نشوة السكر وعمت الروح والجسد فهو فرح
جدلان لا يرى من هذا العالم شيئاً إلا وتجسدت فيه صورة حبيبه يقول الأمير:¹

أوقات وصلكم عيد وأفراح يا من هم الروح لي والروح والراح
دبت حمياهم في كل جوهرة عقل ونفس وأعضاء وأرواح
فما نظرت إلى شيء يشبهه فما يروق لقلبي بعد ملاح

فعبد القادر لا يلام في هذا الهوى الذي ملك عليه روحه ومهجته، فقد غرق في
هواه حتى أخص قدميه، جرفته أمواج هذا الحب فلا عاصم له، ملكه جمال الحبيب
فأغنت طلعتة عن ضوء الشمس البهية حتى الكواكب لو رأت جمال حبيب شاعرنا
لتوقفت عن الدوران وانفجرت نطقاً وتسييحاً. والملاحظ أن الأمير عمد إلى قواميس
التصوف فراح يعب منها ليصف لنا هذا الحب تأسيا بنهج القدماء

بل نراه يستخدم التشخيص "لا عن ضعف في التأليف أو جهل باللغة وقواعدها،
بل لان الصوفية يرون في الموجودات صفة الله تقوم بها، ويعتقدون أنها تتحدث وتعقل
وتفهم وتحس وتشعر كالإنسان تماماً، لذلك يخاطبونها بصيغة العاقل"².
يقول الأمير:³

غرقت في حبههم دهر الم ترني في بحرهم سفن-حقا- وملاح
ماذا على من رأى يوماً جمالهم أن ليس تبدو له شمس وأصباح

¹ - الأمير عبد القادر الجزائري، الديوان، شرح وتحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف
والترجمة والنشر بيروت ط 1964 ص 102-103
² - ممدوح حقي، تعليق على هامش الديوان، ص 203
³ - الديوان، ص 203

جبال لو شامت محاسنهم حنوا ومن شوقهم ناحوا وقد صاحوا
شهب الدرار مدى الأيام سابعة لو أبصرتهم لما جاؤوا ولا راحوا
ويتعجب الأمير أشد العجب من صبر المحبين وشدة احتمالهم وحرصهم على
مدارة ما في أنفسهم من أسرار المحبة الإلهية التي أوتمنوا عليها، فحاول أن يحذوا
حذوهم ويكتم ما يعتلج في نفسه من دروب الهوى ولكن أنى له ذلك فقد خانه الصبر
واقترض أمره وانكشف سره وما ذاك إلا لأن الهوى فضاح:¹

لو كنت أعجب من شيء لا أعجبي صبر المحبين ما ناحوا ولا باحوا
أريد كتم الهوى حيناً فيمنعني تهتكى كيف لا والحب فضاح
ومادام الأمر قد انكشف فان عبد القادر مصر على مواصلة المشوار والسير
في هذا الدرب حتى ولو كان فيه هلاكه، وتلك - فيما نعتقد - خصيصة أخرى من
خصائص فروسية الأمير التي عاشها وتغزل بها في محبوبه أثناء جهاده الأصغر
يستحضرها الآن في حبه الإلهي وغزله الصوفي²

لا شيء يثني عناني عن محبتهم ولا الصوارم في صدر وأرماع
ويلتفت شاعرنا إلى ذلك العدول الذي يلومه في حبه فيؤكد له صدق قوله فيه
بأنه فعلا قد سحر في هذا الهوى. ففي هذا السحر خير الشاعر وفلاحه وسعادته

¹ - نفسه. ص. 203-204

² - نفسه. ص. 204

وصلاحه، ولذلك لم يتحامل الأمير على لائمه بل نراه يشفق عليه ويتفرق في تأنيبه ملتصقا له العذر في هذا العشق والهوى بل، أن كثرة اللوم أحيانا إغراء وتشجيع¹:

قال العواذل فيك السحر قلت لهم نعم ولي صحة فيه وإصلاح
لا زال يربو مع الإناث بي أبدا فلي به بين أهل الحب أمداح
يا عاذلي كن عذيلي في محبتهم فان قلبي بما يهواه مشحاح
إن الملام لإغراء وتقوية مهلا فإنك مكثار وملحاح

وترى شاعرنا في هواه عزوفا عن مخالطة الناس، فهو وحيد لا يشاركه الندمان سكره وشرابه، إلا واحدا اصطفاه الأمير واختاره، لأنه يحدثه عن حبيبه ويحمل إليه أخباره، فلم يعد لعبد القادر أي شغل إلا تتسم هذه الأخبار، ويعتبر هذا العمل نعم التجارة الرباحة والفوز العظيم، ففيه غم الشاعر، بينما ترى غيره يصارعون الحياة من أجل متاعها وبهجتها الزائلة، كسب السمو وارتقى إلى جنان الخلد، حيث أمست نفسه راضية مرضية بما تتعم به من خيارات لا مقطوعة ولا ممنوعة:

فما نديمي بحان الإنس غير فتى له لأخبارهم نشر وإيضاح
لا كسب لي ولا شغل ولا عمل ففي حديثهم تجر و أرباح
ما جنة الخلد إلا في مجالسهم فيها ثمار وأطياف وأرواح

¹ - الديوان، ص. 204.

وتبلغ درجة إخلاص الشاعر لحبيبه مرتبة عظيمة فقد أحبه حبا لا يشاركه فيه أحد، فكلما ذكره أو خطر له على بال إلا اندفعت الذكريات والأشواق من مكانها فاشتعلت نار الهوى في فؤاده:¹

هوى المحب لذى المحبوب حيث ثوى وكيفما راح هبت منه أرواح

ويخلو شاعرنا بحبيبه وقد أديرت أباريق الخمر وأقداحها فيعجب منها ما شاء، ويرجو أن لا ليله يدبر ولا صبحه يسفر لينعم طويلا بالخلوة في هذه الحضرة الربانية، ذلك أن أشد ما يروع العاشق الولهان هو دنو موعد فراق من يهوى. وعلى الرغم من أن الليل بظلامه وهمومه مصدر شكوى المحبين إلا أن ليل شاعرنا نبع فرح وسرور وإشراق وبهاء فيا لبت أيامه كلها ليال:²

أود طول الليالي إن خلوت بهم وقد أديرت أباريق وأقداح

يروعني الصبح إن لاحت طلائعه يا ليته لم يكن ضوء وأصباح

ليلي بدا مشرقا من حسن طلعتهم وكل ذا الدهر أنوار وأفراح

وعلى الرغم من أن عيني شاعرنا قرت برؤية طلعة الحبيب البهية، لكنه - وهذا حال العشاق دوما - لم يقنع فيطلب المزيد، لأنه يرجو إليها وسعت رحمته كل شيء، وينعم عليه من خزائن مالها قفل ولا نفاذ.³

اسكن فؤادي وطب نفسا وقر، لقد بلغت ما رمت قر الناس أو ساحوا

¹ - نفسه، ص. 205.

² - الديوان، ص. 205-206.

³ - نفسه، ص. 206.

واطلب إلهك ما ترجو فان له خزائن مالها قفل ومفتاح
وعلى المنوال نفسه يمضي في حبه الإلهي في قصيدته (أنا الحب والمحبيب
والحب جملة)¹ حيث يصور فيها ما يعترض سالك هذا السبيل من آلام وأشواق وما
يكابده من عذاب وحرقة وتطلع للمحبيب باعتبار أن هذا الحب هو "عنوان التصوف
وهو البذرة آلام التي نمت شجرته، وتهدلت أغصانه، وانبتق زهره، وأينع ثمره، وقد جعل
الصوفية من هذا الحب فلسفة تحيط بكل شيء في الكون، وتمتد أجنحتها إلى كل أفق
في الحياة، فلسفة تمسح من وجه الكون الكبير قناعه المادي ليتحول الكون جميعه إلى
أرواح حساسة عابدة مسبحة، لأنها بالحب حلقت، وبالحب قامت، وبالحب تسبح
وتهدف ثم تمشي إلى الأخلاق الإنسانية فتتفخ فيها من روح الله وتسلموا بها إلى هداه
ورضاه".²

ولذلك فالصوفي يسعى بكل ما أوتي لنيل هذه الغاية مهما كلفه الأمر
واعترضت سبيله المحن، يضع نصب عينيه قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) - آل عمران آية 31- وهو
أسمى ما يرجوه العبد من مولاه، فاقتضت بذلك طاعة الأوامر واجتتاب النواهي. ومدام
هذا الحب قد ملأ وملك قلب الشاعر وذاق حلاوته فانه لا يستطيع أن يسلم هذه
المحبة، فكلما رام البعاد اشتعلت نيران الشوق والحنين في أحشائه فزادته هيما وعذابا،

¹ - نفسه، ص. 207.

² - علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن العربي، ص. 214.

ولن يطفئ نار لوعته ويسكن حرها أي شيء، فالعاشق دوما ظمآن مهما ارتوى، يطلب اللقاء والوصال لان به يحيا وفيه يموت:¹

عن الحب مالي كلما رمت سلوانا أرى حشو أحشائي من الشوق نيرانا
لواعج لو أن البحار جميعها صبين لكان الحر أضعاف ماكانا
تتج إذا ما نجد هب نسيما وتذكو بأرواح تتأوح ألوانا
فلو أن ماء الأرض طرا شربته لما نالني ري ولازلت ظمآنا

وهكذا كلما تدانت المربع بينه وبين المحبوب بغية السلوى زاده القرب شجوننا وحزنا فأمره غريب محير فلا البعد كان شافيا ولا القرب كان له ناسيا، قدره العذاب والحرمان، يتطلع إلى الحبيب ويتلهف لقاؤه فقد عز الدواء واستفحل الداء فامتألت عيناه دمعا فلم يجد للصبر بدا.²

فان قلت يوما قد تدانت ديارنا لأسلو عنهم زادني القرب أشجانا
فما القرب لي شاف ولا البعد نافع وفي قرينا عشق دعاني هيمانا
فيزادا شوقي كلما زدت قربة ويزداد وجدي كلما زدت عرفانا

تاه الأمير وهام في خضم هذا الهوى فضاعت نفسه ، فأصبح يسائل عنها كل غاد ورائح، يتنسم أخبارها ويبحث عنها في هذا العالم الروحي الذي حلقت فيه نفسه بأجنحة الشوق وسمت فلم تعد ترى منه إلا صورة المحبوب، ولا يبغي من دنياه إلا

¹ - الديوان، ص. 207-208

² - نفسه، ص. 208

الوصال، يقايض نفسه بمن يجمعه بمحبوبه فيهبه هذا الجسد الفاني ليستعبده أبد الدهر، أما الروح فلا سلطان عليها لغير الحبيب:¹

أسائل عن نفسي فاني ظللتها وكان جنوني مثلما قيل أفنانا

أسائل من لاقيت عني والها ولا أتحاشاهم رجالا وركبانا

أقول لهم من ذا الذي هو جامعي ويأخذني عبدا مدى الدهر حلوانا

وقد اتخذ الصوفية من بعض الآيات القرآنية دعامة يقيمون عليها مذهبهم في هذه النظرية كقوله تعالى (الله نور السموات والأرض)- سورة النور آية 35 وقوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) - سورة البقرة 115" ولعل الحلاج كان أول من نادى بهذه النظرية قبل ابن عربي، إلا أنها نسبت إلى هذا الأخير، فأوفاها شرحا في (فتوحاته وفصوصه) ومؤداها " أن الموجود كله حقيقة واحدة، تمثل لحواسنا متكثرا في موجوداته الخارجية، وان بدا لعقلنا ثنائيا يتألف من الله وعالم الأعيان، انه حقيقة واحدة هي موجودة بذاتها وهي العالم من حيث هي موجودة بذاتها"²، أي انه يقرر أن الحياة تسوى في كل شيء، وأن العالم " يتكون من ذرات روحية تحتوي كل ذرة منها على ما لا نهاية من التغيرات، وهذه التغيرات أساس بما يسميه هو الخلق الجديد، ومن ثم فليس الموت انخراطا في العدم بل هو انتقال من صور إلى صور أخرى دون وقوع في مذهب تناسخ الأرواح، وسريان الحياة في كل شيء مرتبط عنده بتأثير الأسماء الإلهية"³ فوحدة الوجود إذن "يراد بها أن الحقيقة الوجودية واحدة، وان الكثرة الظاهرة

¹ - نفسه، ص. 209.

² - علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن العربي، ص. 300-301.

³ - محمود قاسم، من الموضوعات الأساسية في مذهب محي الدين العربي، مجلة الثقافة وزارة الثقافة الجزائر عدد 218-1983 ص. 78.

مظاهر وتعيينات فيها، أي أن " الخلق " الظاهر هو " الحق " الباطن¹ أو بمعنى أدق أن الخالق والمخلوق شيء واحد في الجوهر وان اختلفنا في المظهر والصورة.

والقول بهذه الوحدة التي ترى في الإنسان أو العالم صورة الله، هي السبب الرئيس الذي تدرج به خصوم ابن عربي فهاجموه، واتهموه بالكفر والإلحاد² حتى وصل بعضهم إلى حد رميه بالكفر حيناً، والزندقة أحياناً³ ويخيل إلينا أن أولئك الذين يسمون بالمتصوفة فريقان، فريق سلك مسلك الشريعة الصافية، وفريق جنح عن الصراط وزعم أن جنوحه لون من ألوان التصوف، ولا شك أن الفريق الثاني هو الذي قال بالحلول، والاتحاد، وبوحدة الوجود فكفر، وكان يظهر شيئاً هو التقوى، ويبطن شيئاً هو الكفر، وتقويض كل شرع... أو أن أفراد الفريق أصيبوا بمس من الجنون، فراحوا يهدون ويخلطون في كلامهم، فيزعمون أنهم اتحدوا بالإله وأن الإله اتحد بهم، وإنهم أصبحوا جزءاً واحداً³.

وممن تصدى لهذه النظرية وغيرها وانتقدها انتقاداً مرأ، نذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قال: " ما تضمنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله من الكلام فانه كفر باطناً وظاهراً، وباطنه أقبح من ظاهره، وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول، وأهل الاتحاد، وهم يسمون أنفسهم المحققين⁴ ".

¹ - بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص. 259.

² - عبد الله الركبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر دط 1981 ص. 297.

³ - بكري شيخ أمين، المرجع السابق، ص. 297.

⁴ - سيد الجميلي، التصوف السني، دار المسلم القاهرة دط 1984 ص 54

أما جواد المرابط فيرى أن فكرة وحدة الوجود " نظرية فلسفية ضد الشك بل ضد الكثرة، وهي مسألة من ناحية ثانية لا علاقة لها بالدين، وكل ما فيها أنها تدل على الوحدة في نظام العالم، وانسجام نواميسه، والحياة مهما يكن فيها ما يوحدتها ويجعلها في وجود واحد، فإن فيها من الأسرار ما لا يصل إليه العقل، ليجعلها كلها خاضعة لفكرة واحدة... وأن الإنسان أعجز من أن يجمع العالم الغامض وخفاياه المجهولة في نظرية واحدة تعتبر وحدها أنها نهائية"¹. وهكذا أثار ابن عربي بنظريته هذه موجة قوية من الخلاف وخصومة شديدة بين العلماء وفقهاء وتباينت الآراء بينهم معارضة ومخالفة أو مؤيدة مناصرة. لكن الواقع أن هذا الأمر لم يكن وقفا على ابن عربي ونظريته فحسب، بل أن المتصوفة جميعا رموا بسهام النقد والطعن، واختلفت الآراء حولهم تأييدا وإنكارا، ويرجع ذلك إلى أنهم يسلكون في تقرير معتقداتهم طريقة تخالف المألوف، مثل علماء الكلام في استنادهم إلى الآثار من القرآن والسنة في تقرير المعتقدات وإن اختلفوا في مدلول هذه الآثار ولا هم كالفلاسفة الذين ينكرون كل ما عدا العقل طريقة لتقرير معتقداتهم وإنما طريق الوصول إلى الله وتحصيل المعرفة عندهم هو الكشف والأشواق... يستعملون الذوق والروح والوجدان سبيلا إلى معرفة الله، ولا يتقيدون بظاهر الشريعة ويفسرون الآثار تفسيراً باطنا يخالف ما يدل عليه ظاهرها مما جعل بينهم وبين الفقهاء بونا شاسعا من الخلاف تمتلأ بأحداثها الكتب"².

¹ - جواد مرابط، التصوف والأمير عبد القادر الجزائري الحسيني، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر دمشق دط 1966 ص 95
² - علي الخطيب، المرجع السابق، ص 327-328

نعود بعد هذه الفسحة الصوفية إلى شاعرنا وقصيدته التي عنونها محقق الديوان (بوحددة الوجود).¹ تأكيدا منه على أن الأمير كان يؤمن بهذه الفكرة في تصوفه باعتباره تلميذ ابن عربي.

فالأفكار التي أوردها عبد القادر في أبياته قادتته ولا شك إلى مناهات خطيرة ودروب صعبة يقف القارئ حائرا أمامها لا يجد لها تفسيراً سوى أن الأمير "كان يطلق الآراء والأحكام ويلقي الكلمات بدون أن يعي أثرها وتأثيرها في السامعة، ودون أن يشعر بضررها وتأويلها"²

ولا ريب أن الأمير قد اندفع في هذا مقلدا تارة ومتأثرا أخرى بسابقه من القوم، فقد انصهر في حبه لمولاه، وتسامت روحه إلى مراق وأحوال فأراد أن يعبر عن ذلك فخانتته العبارة وتاهت به الفكرة فوقع في المحذور وأصبح قوله يؤول تأويلا ربما لم يقصده الأمير البتة. وهو ما يعبر عنه في هذا النص مدافعا عن نفسه في هذا المجال بقوله: "واحذر أن ترميني بحلول واتحاد أو امتزاج أو نحو ذلك فاني بريء من جميع ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله، فإنني فهمت منهما ما فهمت أنت وزدت عليه"³، بل نراه يحذر أولئك الذين يؤولون كلامه على نحو لم يقصده بقوله: "إياكم ثم إياك أن تتوهم وتتخيل فيما اذكره في هذا الموقف تشبيها عقليا أو تمثيلا، أو حلولا أو اتحادا، أو سريانا أو امتزاجا، أو ارتساما أو اتصالا، أو انفصالا أو مقابلة أو

¹ - الديوان ، ص 211

² - عبد الله الركبي، لمرجع السابق ، ص 207

³ - عمار طالبي، الأمير عبد القادر والتصوف، مجلة الثقافة وزارة الثقافة الجزائر عدد 75 1983، ص. 258.

مقارنة، أو تقديمًا أو تأخيرًا، أو قبلية أو بعدية، أو كيفًا أو كما أو معية أو أين أو متى أو ترتيبًا، فمن توهم شيئًا من ذلك سقط في مهواة من التلف على رأس أمه¹

ومن هنا فإن عبد القادر كما يقول عبد الله الركيبي: "لو رجع إلى قصائده لما رضي عنها ولا أعاد النظر في صياغتها من جهة ولا بدل من نظرتة فيها من جهة أخرى حتى ينفي عنها هذه الخيالات المضطربة والتهويمات المشطبة، وحتى يصلح من أخطاءها العروضية الكثيرة التي تقربها من النثر في لغتها وصورها"²

يقول في قصيدة غيب³ التي يعرض فيها لمصير الإنسان وما ينتظره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم فإما فوز ورضوان وإما خسران وغضب ففيها خنوع وتذلل لله ورجاء في رحمته وعفوه تمثل بحق شخصية الأمير الدينية التي يمكن وصفها بإيمان العوام فيها صدق العقيدة وبساطة التعبير وتتجلى هذه الصفة إذا وازنا بينه وبين شعراء الزهد والتزاهد من أمثال أبي العتاهية وبينه وبين شعراء الإسلام الحديث مرة أخرى فالنوع الأول يثير فينا التساؤل حول الصدق أهو زهد أم تزاهد؟ والنوع الثاني يثير فينا تساؤلًا هل إثارة إعجابنا به نابع من صدق عواطف الشاعر أم من قدرته على الإبداع الفني؟ ويجيء شعر عبد القادر - فيما نعتقد - في موقف وسط بينهما يحمل الكثير من الصدق والأصالة يقول الأمير⁴.

أيا نفس إن الأمر غيب فما تدري بماذا يكون الكشف في آخر العمر

فإما بشير باللقاء وبالرضى على طول عتب بالزيارة للزور

¹ - نفسه، ص 258

² - عبد الله الركيبي، نفسه، ص 309

³ - الديوان، ص 200

⁴ - الديوان، ص 200-201

وإما بضد بل ولا كان ضد ذا تعالى الهي عن عذابي وعن ضري
 وليس تلاف بل ولا رد فانت هنالك لا يجدي سوى الجبر للكسر
 أيا سامع الشكوى ويا دافع البلى ويا منفذ الغرقى ويا واسع الصبر
 تجهت لك وجهي بأكرم شافع محمد المبعوث للحر والعدل
 لترسل لي عند الوفاة مبشرا برضوانك الأوفى وفوز في الحشر

وعموما فان هناك حقيقة عامة لا تخفى على الباحث والدارس لشعر الأمير عبد القادر وهي أن غزل الأمير الإلهي وحلولة واتحاده لا يخرجان عن كونهما تقليدا بحتا، وحثنا في ذلك حياة الأمير وسيرته فهو إنسان متدين دافع عن الإسلام بسيفه وقلمه، وجاهد الكفار حربا وقولا، واعتبر التصوف والعبادة إذا لم يقرنا بالعمل هما مجرد لعبة، ودليله في ذلك الكتاب والسنة حيث "يرفض في نومه قبول ما يرفضه في صحوه وعلمه"¹. فالتصوف الحق عنده هو ما جسده في هذه الأبيات التي أرسلها إلى كاتبه بن رويلة يقول فيها:²

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت انك في العبادة تلعب
 من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
 أو كان يتعب خيله في باطن فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
 ريح العبير لكم ونحن عبيرنا وهج السنابك والغبار الأطيب

¹ - محمد السيد الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، ص. 103
² - الأبيات ليست للأمير كما أوردها المحقق في ديوانه وإنما هي للزاهد الكبير عبد الله بن مبارك. أنظر محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوراته، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية دط 1983 ص 50

ومهما قيل عن شعر الأمير في التصوف والقضايا التي ضمنها فإنه لا ينتقص من قيمته وجهده في هذا المضمار ويكفيه فخرا أنه " أول شاعر جزائري حديث كتب في التصوف نثرا وشعرا وترك تراثا ضخما بالقياس إلى غيره من العلماء والشعراء في عصره وربما إلى من جاء بعده على تفاوت بينهم قلة وكثرة"¹. وإذا عد الأمير في بداية حياته شاعر العروبة والإسلام فإنه في آخرها يمكن اعتباره شاعر التصوف بلا منازع"². وعليه فإننا نعتقد أن الشاعر كان يلتمس هذه السبل باعتبارها تؤدي إلى الإيمان والمحبة والمعرفة والتوحيد وان تعددت طرقها وتباينت مناهجها في الوصول إلى الحقيقة المجردة حقيقة خضوع العبد لخالقه والإذعان له بالطاعة والخنوع والإقرار له بالوحدانية والربوبية وما نشك أن شاعرنا كان يرمي إلى غير هذا.

¹ - عبد الله الركيبني، المرجع السابق، ص 241

² - نفسه، 242

قائمة المصادر والمراجع:

القران الكريم، رواية ورش

1 بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوك والعثماني، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط3
1980

2 ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت ط 1968

3 جواد المرابط، التصوف والأمير عبد القادر الجزائري الحسيني، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر دمشق ط 1966.

4 سيد الجميلي، التصوف السني دار المسلم القاهرة ط 1984

5 عبد القادر الجزائري، الديوان شرح وتحقيق ممدوح حقي دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بيروت ط 1964

6 عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط 1981

7 علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي دار المعارف القاهرة ط ت

8 فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط 1985

9 محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي دار اليقظة العربية بيروت ط 2 1964

10 محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط 1983

11 مصطفى طلاس، فارس الصحراء الأمير عبد القادر طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق ط 2
1984

12 مجلة الثقافة وزارة الثقافة الجزائر، عدد 75، 1983.